مفهوم النثر

النثر لغة :" ترك الشيء بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسكر , وكذلك نثر الحب إذا بُذر" فالمعنى اللغوي واضح يدل على البعثرة , والشيء المتفرق .

أما اصطلاحا : فهو الكلام الذي يخلو من الوزن ، أو هو كلام مقفى بالسجع .

والنثر هو رافد رئيس من روافد الأدب ، ميدانه الفكر والإدراك لا الخيال والعاطفة ، وسبيله التثقيف والصقل ، ومهمته الشرح والإيضاح . أما ساحته فهي واسعة تضم الحوار العادي ، وحديث المعاملات اليومية ، والكلام المصقول الملتزم ببلاغة اللغة وفصاحتها ، ويعرف بالنثر الفني الذي يرتفع فيه أصحابه الى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة ، وهو الذي يعنى النقاد ببحثه ودرسه وبيان خصائصه . وهناك أيضا النثرالعادي الذي يقال في لغة التخاطب اليومية ، وليست له قيمة أدبية إلا مايجري فيه أحيانا من أمثال وحكم .

إنّ أبرز ألوان النثرالعربي الحديث هي : القصة والرواية والمقالة والسيرة والمسرحية . وقد اختلفت عن الفنون النثرية القديمة التي كانت تتلخص ب : المقامات والتوقيعات والرسائل والأمثلة السائرة .

عوامل تطور النثر العربى الحديث

أخذت بوادرالضعف تظهر في الأدب العربي - شعره ونثره - منذ احتلال بغداد على أيدي المغول ، واستفحل ذلك وأصبح معلماً بارزاً من معالم أدبنا في العهد العثماني حيث أُهملت اللغة العربية ، وأصبحت اللغة التركية لغة الدولة الرسمية .

عاش الوطن العربي العربي خلال عدة قرون انكساراً حضارياً ، أصبح فيها كل شيء باعثاً على التخلف والضعف ، فالنظام السياسي انعزل عن الشعب ، وصار قائماً على العنف والجور ، فاختلفت المساواة بين الناس ، وانتشرت الرشوة ، وأُهملت مرافق البلاد الرئيسة ، ودمرت مصادر الثورة ، فانتشر البؤس والفقر ، واصبح المجتمع يتكون من طبقتين رئيستين : هما طبقة الأغنياء من الولاة والأمراء وحاشيتهم ، وطبقة الفقراء التي تشمل أغلبية الشعب .

كذلك هُدمت المدارس ، وتفشّى الجهل والأمية بين الناس ، واقتصر التعليم على الكتاتيب ، وبعض المعاهد الدينية . وفي الوقت نفسه تدهورت الصحة العامة ، فانتشرت الأمراض والأوبئة الفتاكة ، مما أدى إلى هلاك أعداد كبيرة من السكان .

كان طبيعياً أن تؤثر هذه الأجواء الشاذة في الأدب سلباً ، فقد ضعف الأدب شعراً ونثراً وساده الانحطاط إذ صار ألاعيب لفظية وأداة من أدوات التسلية ، فلم يبق فيه مظهر من مظاهر العاطفة أو الفكر إلا وظهرت فيه الركاكة والعجمة والعامية .

إنّ النثر الحديث - وهذا هو موضوعنا - كان نصيبه من الضعف ، خلال هذه الفترة ، أكبر من نصيب الشعر ، لأنّ النثر يرتبط ارتباطاً كبيراً بالفكر والثقافة ، فمادام الفكر والثقافة متخلفين ، فلا يمكن باي حال من الأحوال أن ينهض النثر ، فهو ابن الفكر والحضارة ، يعيش بواسطتهما ، ويستمد أسباب حيويته منهما .

فالنثر في هذا العصر فقد روحه وصار بعيداً عن الفكر والشعور في الوقت ذاته ، لذلك لجأ إلى الزخارف اللفظية ،والألاعيب البديعية حتى يعوض عن هذا النقص الذي وجده في كيانه ، فطغى السجع على أسلوبه ، الأمر الذي جعل هذا الأسلوب مزخرفاً ومتكلفا . ولم يسر هذا الضعف في أسلوب النثر فحسب ، بل تعداه إلى مضمونه ، فضاقت موضوعاته وأصبحت ساذجة ، ودارت على بعض الأخوانيات والخطب والمناظرات .

ظلت هذه الخصائص والسمات في النثر العربي حتى منتصف القرن التاسع عشر ، حيث أخذت تظهر عوامل ومستجدات في المجتمع العربي ، تعمل على تغير النثر ونهضته حتى يتلاءم وروح العصر .

وفيما يلي أهم هذه العوامل التي عملت على نهضة النثر العربي الحديث :

- **يقظة الأمة العربية**

على أثر ضعف الدولة العربية الاسلامية وتفككها إلى دويلات وإمارات ، ومجيء الحكم العثماني ، استغرق المجتمع العربي في سبات سياسي , وكان من بين أسباب هذا السبات ضياع السيطرة العسكرية والتجارية التي كانت للعرب أيام ازدهار حضارتهم ، وعزلة العرب عن العالم ، لكن مع حلول العصر الحديث ، وبداية مطلع القرن التاسع عشر ، أخذت الأمة تعي ذاتها ، وتستيقظ من سباتها ، وبدأ العرب يحسون بكيانهم ، وانهم يشكلون أمة لها خصائصها الذاتية ، ومن هنا بدأوا يطالبون بحقوقهم ، وتحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية والثقافية .

بدأ هذا أولاً بالنضال من أجل ادخال اصلاحات مختلفة ، وظهرت حركات وتنظيمات سياسية تدعو إلى الانفصال عن الدولة العثمانية ومنح العرب الاستقلال السياسي .

لقد أعان على هذه اليقظة جملة عوامل ، لعل من أهمها اتصال العرب بالعالم الخارجي لاسيما العالم الأوربي ، بعد عزلة طويلة عن العالم دامت عدة قرون .

كانت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت على مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، بداية الاتصال بين العالم العربي وأوربا في العصر الحديث . والمعروف انّ نابليون جهز حملته تجهيزاً عسكرياً وعلمياً ، فأدخل معه إلى مصر مطبعة ، وأصدر جريدة ، وأسس مسرحا ومجمعا علميا على غرار المجمع العلمي الفرنسي ، وأنشأ معامل ومستشفيات ، وطبق بعض التنظيمات الادارية الحديثة أثناء حكم مصر .

لكن الحملة ، على الرغم من ذلك ، لم تترك آثاراً خطيرة في مصر ، بخلاف مايراه بعض الباحثين من أنّ الحملة أفادت مصر فائدة كبرى ، وكانت سبباً في نهضتها الحدبثة ، ولعل ذلك يعود إلى عدة عوامل منها :

1- إنّ المصريين استقبلوا الحملة بروح عدائية شديدة تمثلت في مقاومتهم العنيفة والمستمرة لها ، بمختلف الصور السلبية والإيجابية ، وذلك لأنّ الحملة الفرنسية كانت عندهم امتدادا للحروب الصليبية في أرض مسلمة .
2- عدم استعداد المصرين الحضاري لفهم وتفسير سلوكية وتصرفات الفرنسيين التي كانت تبدو لهم في غاية الغرابة .
3- كان علماء الحملة غرباء عن البلاد بلغتهم وعلمهم ، وقد اقتصرت صلتهم بالعلماء المصريين على الصلة السطحية التي لاتعدو عرض كتبهم الفرنسية التي لايستطيع المصريون قراءتها ، وعرض بعض تجاربهم العلمية .
4- قصر المدة التي قضتها الحملة الفرنسية في البلاد ،وعدم قدرتها على تثبيت مركزها .

على أنّ الأثر الواضح للحملة تمثّل في رد الفعل الذي أحدثته في نفوس المصريين ، فقد كانت الحملة بالنسبة إليهم أول مظهر من مظاهر التحدي الغربي لحضارتهم ، وقد كشف هذا التحدي عن سوء واقعهم ، ونبههم إلى ضرورة تغيير هذا الواقع ، إذ أرادوا المحافظة على كيانهم ،وحماية بلادهم من الغزو الأجنبي ، كذلك كشف لهم عن قوتهم التي ظهرت بوضوح في مقاومتهم المستمرة للحملة في الوقت الذي تحطمت فيه القوة العسكرية للماليك والأتراك من الجولة الأولى .

منذ ذلك الوقت أخذت قطاعات الشعب المختلفة تسعى من اجل تغيير واقعها السيء في مصر وغيرها من الأقطار العربية ، وصارت تتحرك ليكون لها دور في أمور السياسة والحكم ، ويظهر مايسمى بالرأي العام الذي يعبر عن رأي الشعب في القضايا السياسية ، ولعل أول مظهر لذلك تمثل في مشاركة بعض فئات الشعب في انتخاب محمد علي حاكما في مصر ، بعد انسحاب الفرنسيين منها ، ولو أنّه ضرب هذه الفئات بعد تثبيت حكمه ، وفي ثورة أحمد عرابي التي قامت في عهد إسماعيل .

وتمثل فيما بعد النشاط السياسي الشعبي في ظهور جمعيات وحركات وأحزاب سياسية شهدتها مصروسوريا والعراق ، وأصبحت علامة بارزة على اليقظة السياسية للأمة العربية ، وأهمها جمعية بيروت السرية ، وجمعية الإخاء العربي العثماني ، والجمعية القحطانية ، وجمعية حفظ حقوق الملة العربية التي وجهت نداء إلى العرب مسلمين ومسيحيين تحت عنوان (بيانات الأمة العربية) دعتهم فيه إلى الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية .

جعل التحدي الغربي العرب يبحثون عن وسيلة يعتمدون عليها للوقوف أمام هذا التحدي ، أما واقعهم فقد التفتوا إليه باحثين فيه عما يصدون به هذا التحدي ، لكنهم لم يعثروا فيه على ضالتهم ، إذ كان هذا الواقع واقعاً متخلفاً ، كل مافيه ينم على الضعف والانحطاط ، ومن هنا كان التفاتهم إلى الماضي حتى يسعفهم بما لم يجدوه في حاضرهم ، فوجدوا فيه تراثاً حضارياً مشرقاً زاخراً بالعطاء والإبداع ، لهذا رجعوا إلى التراث العربي القديم ، يبعثونه ويستلهمونه ويستمدون منه القوة لصد هذا التحدي الحضاري الذي يهدد كيانهم ووجودهم .

ومهما يكن من أمر فقد ظهرت ثلاثة مواقف أثر اللقاء بين الحضارة العربية والأوربية :

1- الموقف الأول : قام على رفض الحضارة الأوربية كلياً ، وبعث الحضارة والثقافة العربية القديمة ، لتكون بديلاً عن الحضارة الأجنبية .

2- الموقف الثاني : أعجب بالحضارة الأوربية ، ودعا الى اقتباسها , والذوبان فيها كليا .
3- الموقف الثالث : قام على محاولة التوفيق بين الحضارتين ، والجمع بين ايجابياتهما .

وكان وراء هذه اليقظة العربية الحديثة أعلام ساهموا بفكرهم النير، وأعمالهم الجليلة في بعثها ، ووضع أسسها الفكرية .وفي مقدمتهم رفاعة الطهطاوي ، الذي يُعد إمام النهضة العلمية في مصر والعالم العربي . كان شيخاً أزهرياً اختاره محمد علي إماماً لبعثته الأولى إلى فرنسا ، وبفضل ذكائه أتقن الفرنسية ،وقرا بها سائر العلوم والمعارف ، وألف وهو في فرنسا كتاباً سماه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) ضمنه مشاهداته وانطباعاته في فرنسا ، كذلك عرّب فيها عدداً من الآثار في علوم ومعارف مختلفة . وبعد عودته إلى مصر عزم على نقل العلم والحضارة الأوربيين إلى بلاده ، فأسس مدرسة الألسن التي اهتمت بتدريس اللغات الأجنبية ، وقام بترجمة عدد من الكتب الفكرية والعلمية والفرنسية إلى اللغة العربية ، وفي الوقت ذاته الف كتاباً في التربية والاجتماع .

إنّ أهمية الطهطاوي تكمن في كونه أول مفكر عربي يتصل بالغرب في العصر الحديث ،وينقل عنه علومه ومعارفه ، وينادي بأفكار ودعوات سياسية واجتماعية ذات طابع حضاري وتفدمي ، تترك آثاراً عظيمة في البلاد وتؤثر في مفكرين يكون لهم دور كبير في تاريخ مصر فيما بعد .

ومن أعلام النهضة العربية – أيضاً- الشيخ ناصيف اليازجي الذي اهتم بإحياء اللغة العربية عن طريق تدريسها ، ونظم الشعر بها ، وكتابة المقالات والمقامات ،حتى عدّ أول أستاذ كبير للغة العربية في لبنان أبان القرن التاسع عشر .

ومثله ابنه إبراهيم اليازجي الذي اشتهر بنزعته القومية التي دفعته إلى نظم قصائد حماسية في القومية العربية .

ومثلهما بطرس البستاني الذي قام بأعمال جليلة في خدمة اللغة العربية ، لعل أهمها تأسيس (المدرسة الوطنية) فقد أقامها على مبدأ وطني لاديني ، واهتم فيها أساساً بتدريس اللغة العربية والعلوم الحديثة ، كما قام بتأليف قاموس سماه (المحيط) والموسوعة العربية في عدّة مجلدات ، وأصدر جريدة (الجنان) .

ومن هؤلاء -أيضا - عبد الرحمن الكواكبي مؤلف كتابي (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) (وأم القرى) وقد دعا فيهما إلى نقل الخلافة مجدداً إلى العرب ،لأنهم وحدهم يستطيعون حفظ الإسلام من الفساد ؛ وذلك لمركز الجزيرة العربية في الأمة ولمكانة اللغة العربية في التفكير الإسلامي .

أما المفكر السوري نجيب العازوري فقد أصدر في باريس مجلة باسم (الاستقلال العربي) ثم نشر كتاباً بالفرنسية بعنوان (يقظة الأمة العربية) ذكر فيه أنّ هناك أمة عربية واحدة تضم مسلمين ومسيحيين ،ووجوب استقلال العرب عن الأتراك ، ورسم في الكتاب الخطوط الكبرى للدولة العربية المستقلة .

إنّ هؤلاء الأعلام والمفكرين أسهموا في خلق نثر عربي حديث صالح للتغيير البسيط والدقيق المباشر عن مفاهيم الفكر الحديث .

لقد عملت اليقظة السياسية والنهضة الفكرية للعرب ـ وكتابات هؤلاء الأعلام وغيرهم ـ على نهضة النثر العربي الحديث عن طريق تطويعه للتعبير عن مختلف الأفكار والقضايا السياسية والاجتماعية ، كذلك جعلت النثر يتخلص من الزخارف اللفظية ، وذلك بالاهتمام بالمعنى بدلا عن اللفظ ، وأعانت في الوقت نفسه على إيجاد موضوعات كثير ة ومتنوعة .

وعلى العموم تكونت من اليقظة القومية حركة أدبية ساهم فيها النثر والشعر ، عبرت عن تطلعات العرب وخوالجهم القومية .

.....

المصادر : ينظر لسان العرب ، مادة نثر ، والفن ومذاهبه في النثر العربي : شوقي ضيف ، ص 15 ، ومحاضرات في النثر العربي الحديث : د. حاتم الساعدي ، ص 7 – 12 , والادب العربي الحديث ، دراسة في شعره ونثره : د. سالم الحمداني ، د. فائق مصطفى ، ص 342- 348 .